# نحو تقويم منهجي للخطاب الإسلامي الديني

أ.د. عبد الرزاق قسوم

أستاذ التعليم العالي

– جامعة الجزائر–

**مدخل:**

إن من المسلّم به – منهجيا– أن الخطاب الفكري عموما، والإسلامي بوجه خاص، إنما هو مرآة عاكسة لواقع مجتمعه، منه يستمد مكوناته، وبه يجسد محدداته.

لذلك، فإذا أردنا أن نقيس مدى تقدم ووعي مجتمع كمجتمعنا الجزائري المسلم، فعلينا أن نبدأ بتحديد ملامح خطابه الديني، بحثا عن مكونات هذا الخطاب، ومقاصده، وطريقة عرضه، وعناصر مضامينه.

وإن من نافل القول، التسليم بأن الخطاب الإسلامي في مجتمعنا، يعاني إضطرابا في تموجات إرساله، وضبابية في رؤى اتصاله. وما دمنا في عالم معاصر، تطفو على سطحه أعراض العالمية، وينشد لحياته الدقة المنهجية، ووضوح الرؤية الفكرية، فإن من أهم متطلبات البحث في خبايا خطابنا الديني تقديم صور صحيحة عنه، بواسطة القيام بعملية تقييم منهجي و البدء بالتعريف به في محاولة تمهيدية لتشخيص عناصر تأزمه، واقتراح حلول ناجعة له.

## 1-أعراض التأزم:

ربما كان أدق تعريف لخطابنا الديني الإسلامي هو " أن لا تعريف له" وهذه هي الخاصية الأساسية لأعراض تأزمه.

إنه لما يضاعف من مهمة المشخص الفاحص لواقع الخطاب الديني في ثقافتنا الإسلامية، البحث عن ربوة صلبة " ذات قرار ومعين، يرصد من خلالها عوامل الإضطراب، وأعراض التأزم، ليصل بعد ذلك إلى النجع وسيلة لتجاوز العقبات، واكتشاف طريق الخلاص.

ليس من باب جلد الذات، الحكم بأن خطابنا الديني تستبد به نزعة السير بعيون معصوبة، بحثا عن ماض مثقوب، ودعوة ساذجة في التقليد الغبي المشوب.

فهل يعقل في عالم يرفع شعارات مظلومة، كالإصلاح، والعولمة، أن يسير خطاب ذو مضامين فكرية، وإيديولوجية، ودينية نحو المجهول، وكل ما في هذا العالم يدعو إلى التخطيط، والوضوح والرسو -قبل الانطلاق- على قاعدة صلبه؟

وهل من الوفاء للأصول، السير إلى الأمام بعيون مشدودة نحو الخلف، أو النظر إلى الماضي بنظارات رانت عليها عتمة الجهل، أو غشيتها ضبابية بيت العنكبوت؟

وهل من الوعي بمقومات الذات، خيانة هذه الذات الحضارية، بالخروج عن قواعدها المنهجية، والإندفاع نحو وثبة اعتباطية تحكمها " ذهنية القطيع" للتقليد، والذوبان ومحو الذات؟

على أن أخطر أعراض التأزم في خطابنا الديني – من وجهة نظرنا- هو سقوطه في التحزئية الإيديولوجية، والعصبية المذهبية، والطائفية الإقليمية، والغثائية الفكرية، والاتباعية القطيعية.

إن هذه التساؤلات هي التي نتخذها كمفاتيح منهجية لفك اشكالية الخطاب الديني الإسلامي عندنا.

**2-النص الديني....من الجمود والجحود.**

هل يمكن القول بأن الخطاب الديني الإسلامي، بجميع توجهاته العقدية، والإديولوجيه، هو خطاب منقطع عن جذوره، منفصل عن أصوله الأساسية؟ ربما اعتبر هذا النوع من التساؤل، بمثابة التحدي للعقل المسلم، وللخطاب الديني بوجه عام، غير أن ما يفرزه التأمل الفاحص لمضامين خطابنا الديني الإسلامي، وما تفضي إليه نتائجه من تضاد، وتناقض – أحيانا- وما نلاحظه من اتجاهات مذهبيه متقاطعة ومتعاكسة، كل هذا يجعلنا نسلم بمثل هذه المنهجية في الطرح، وهو ما يلقي علينا مسؤولية فك الإشكال القائم للوصول إلى رؤية أوضح.

فإذا كان من المسلم به أن الخطاب المعبر عن ثقافتنا الدينية، هو – نظريا – خطاب إسلامي في مرجعيته، إنساني في أحكامه ومردوديته، فإن تجسيد ذلك على أرض الواقع لا يخلو من ضبابيه في كيفية التعامل مع النص المرجعي، وطريقة الاستفادة منه ليتم نشره داخل الثقافة الإسلامية وخارجها.

لا غرابة –إذن– أن نجد داخل الخطاب الديني الإسلامي مجموعة من الانتماءات، كل منها يدعى اتصالا أكثر بالنص المرجعي، فيما يصدر من أحكام، هذا يلي النص، وذاك بتأويله، والآخر بالقفز عليه.... ومن ذلك الانتماء السلفي، والانتماء الإصلاحي، والانتماء التجديدي والانتماء الحداثي ..الخ، ولقد أدى هذا كله إلى استنتاج فكرة خاطئة، هي اصطناع صراع مفتعل بين العقل والعقيدة، وصدام مزعوم بين العلم والدين، وفصل مخترع بين السلطة الروحية والسلطة السياسية.

هناك داخل الخطاب الإسلامي -اليوم- أزمات تصنعها عقد ... مثلى ذوي " أزمة التأصيل " الذي يعانون من عقدة بالغة الخطورة هي عقدة الانسلاب العقلي، الناجم عن الصدمة الثقافية الاستعمارة التي صادفت خواء فكريا، فتمكنت، وعششت وألقت ببذور جراثيمها الخبيثة داخل الكيان كله.

وهنا يكمن سر الضبابية الحاجبة لعقول دعاة الحداثة في خطابنا الإسلامي في نظرتهم إلى النص الديني. وفي مقابل هؤلاء يقف دعاة الأصالة والأصولية في الخطاب الديني الإسلامي... وهؤلاء – هم أيضا- يعانون من عقدة معاكسه، هي الانغلاق، والانحباس والجمود على النص المرجعي، بإضفاء فهمهم الخاص على أحكامه، ورفض أو تحريم، كل فهم أو تفسير النص خارج فهمهم وتفسيرهم، ومشكلة هؤلاء أنهم " ينشدون خارج السرب الإنساني " فيعلنون العداء باسم الأصالة لكل مظاهر الاصلاح، والتجديد " فلا يجوز " هي مفتاح حل كل ما يواجههم من مشاكل العصر.

إن مشكلة الجمود على النص، وسجن العقل داخل محيط هذا الجمود، هو ما اسقط على العقل هذه الضبابية التي يرفعها الأصاليون- عن غير قصد- لحماية الذات الحضارية من الغزو الموهوم.

وهكذا، فبين الجمود والجحود، ضاع الخطاب الديني الإسلامي، وخف بريق اشعاعه، وتعتمت صورة إبرا، فتبددت وحدته، وضاعت عهدته وعدته.

**3-تخصيب المنابع :**

وبالمثل فإن دعاة الأصالة، وهم القوة الكامنة والمتأصلة في ثقافتنا الإسلامية، هؤلاء هم أيضا مدعوون إلى تطعيم فكرهم ببعض عناصر التطعيم السليمة التي تزيد ثقافتهم نماء، وفهمهم للنص وضوحا وجلاء، إن الأصليين منا هم المرابطون على ثغرتي الجغرافيا والتاريخ، وخطورة موقعهم ودورهم، يكمن في الحفاظ على صحة النص وسلامته، وحسن تقديمه للناس، وإلا أوشكوا أن يتحولوا بجمودهم، وضبابية فهمهم، إلى أسوإ محامين عن أعدل قضية، ويكون مسعاهم، كمسعى من وصفه القرآن بقوله تعالى: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾[1].

إن ضبابية النص في رؤية دعاة الخطاب الإسلامي على اختلاف مدارسهم وتوجهاتهم، آفة منهجية تنخر صميم الخطاب....وما لم يع الجميع ضرورة إزالة هذه الضبابية، بالعلم، والفهم، والوعي فإن الخطاب الإسلامي المعاصر، بهشاشته يوشك أن يزول، وفي ذلك زوال لوجودنا الحضاري، وكياننا الثقافي، وتلك هي الطامة الكبرى.

أرأيت الذي يعمد إلى منبع عذب رقراق فيكدر صفوه، وإلى نهر ثرّار فيحول مصبه؟ أرأيت أنكى ممن يأوي إلى واد ذي زرع خصيب، ينشر الخضرة والنماء حوله، فيعمل على تحويل خصوبته إلى جفاف، وخضرته ونمائه إلى يبس حيث لا ماء ولا اخضرار؟ إن ذلك هو حال شرذمة من بني قومنا، " السابحين ضد التيار" الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم " فيعلنوها حربا على الحرف العربي باسم العصرنة. وحملة على التدين باسم محاربة " الأصولية"، وعدوانا على النصوص المقدسة باسم التقدمية والثورية.

إنهم لينتشرون في أرضنا الخصيبة، كخلايا الطحالب، " يفسدون في الأرض، ولا يصلحون"متجلببين بشعارات مظلومة "كالعلمانية" و"الحداثة" و"التقدمية" و"الثورية" عرفناهم بسيماهم، وعرفناهم في لحن القول، وشذوذ السلوك، فوصفناهم " بالاستئصاليين" لأن ديدنهم استئصال كل تدين، وكل قيم، وكل إسلامي....

لقد بلوناهم في محنة الجزائر الدموية – على سبيل المثال- فكانوا دروعا واقيات للأعادي، سهاما قاتلة ضد المؤمنين في الحواضر والبوادي يعملون على إخفات كل نبضات الحياة في الصحوة الإسلامية.ومنهج هؤلاء منهج مزدوج، فهو منهج عاجل يتمثل في إخماد كل صوت ينادي بتأصيل الخطاب الإسلامي للحيلولة دون تبوئه موقعا متميزا في الحياة الوطنية العامة. أما منهجهم الآجل فهو التضييق على سبل الخيرات التي تنشر الخلق الإسلامي تربويا، وتلقن الناشة القرآن علميا وتنشئ المدارس الإسلامية وقيمها اجتماعيا.

كما تهرول لتطبيق " الاصلاحات" الوافدة للتضييق على الممارسة الدينية بإخضاعها لمنهج انتقائي، يقتطع منها كل ما هو حكم تشريعي يتعلق بالجهاد كدفاع عن

الذات، أو بالمعاملات، كالزواج، والميراث، أو العلاقات مع غير المسلمين، وكل ذلك بزعم إعداد المسلم لأن يعيش عصره " متحررا" من قيود الدين.

إن هذه العوامل الموسومة بتجفيف المنابع هي التي تجسد شعار أهل الحداثة، ممن يمثلون "الطابور الخامس" في مسيرتنا الثقافية والسياسية.... على أن المنهج المعكوس لتجفيف المنابع، والذي هو التخصيب، لا يقل أهمية عن سابقه فإذا كان التجفيف كما رأينا، يتم بالبتر، والاختزال عند العلمانيين، فإن تجفيفا آخر للمنابع، نعيش أثره، وهو ما يقوم به دعاة " الأصالية"، ممن يحنطون النصوص، ويجففون الجهد العقلي لفهمها، ويحيلون أصول شرعنا وتشريعنا إلى مفاهيم ثابتة لا تُغير ولا تتغير، وذلك هو التجفيف المضاد....

مأساة الخطاب الإسلامي المعاصر اليوم تتمثل في معاناته من خطر مزدوج، تشمله فلسفة معان لعقول منحرفة أو ضائعة.

أما العقول المنحرفة في فلسفة المعنى هنا، فيمثلها خريجو المدرسة الاستعمارية، فمدرستهم هي التي دفعت إلينا بمحترفي منهج الشك والتشكيك في قدرة ثقافتنا على مواكبة العصر، ومعايشة تطوره.... وهم فيما يزعمون أن العلة الأولى تكمن في "قيود وهمية" وضعها الدين وكبل بها المؤمنين به، فحال دون انطلاقهم، ولا يمكن للإنسان المسلم أن ينطلق – وفق هذا التحليل الساذج – إلا بفك قيود الدين.... ومن هنا جاءت سلسلة محاولاتهم بدء بتجفيف المنابع وانتهاء بتطبيق الإصلاح الانتقائي الاختزالي.

فإذا عدنا إلى العقول الضائعة في فلسفة المعنى كما ذكرنا، فإننا نجد لونا آخر من الضياع تمثله عقول صنعها رد الفعل المعاكس للتيار الأول، ويمثله صنف من المثقفين على

اختلاف اختصاصهم وتكوينهم، علماء، وفقهاء، ومؤرخون، وأدباء، وكلهم يقفون - جميعا- تحت مظلة الدفاع عن الإسلام وحمايته من البدعة والإنحراف، وشرور الفلسفة العقلية، الوافدة من الحداثة ودعاتها....

ولئن كان منطلق هؤلاء يتسم بنية طيبة، فإن هذا لا يبرر النتائج الخاطئة التي أفضى إليها منهجهم، فقد ضيقوا – في الإسلام- واسعا وجففوا مخصبا، وحرّموا جائزا فجسدوا بذلك الدعوة إلى العنف العملي، بعد العنف اللفظي، عندما أغلقوا كل باب للحوار مع الآخر على أساس القاعدة القرآنية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[3].

من هنا جاءت الدعوة إلى تخصيب المنابع بدل تجفيفها، والإسلام بكتابه وسنته، وعمل السلف الصالح من أتباعه، لخير مثال للمنبع الخصب، الذي يشيع الخصوبة الفكرية، والنماء العقلي، بالحوار، والدعوة بالتي هي أحسن في مناخ خصيب بعيد عن القحط والجفاف والتشنج، والإنغلاق على أحادية الفهم، للنصوص....وهنا تكمن مسؤولية الراسخين في العلم الإسلامي الموكول إليهم عملية التخصيب الفكري، لتحقيق الإشعاع الإسلامي المنشود.

**4-منهجية التقويم :**

إذا كان من غير الممكن، القيام بالتشخيص والعلاج لواقع الخطاب الديني الإسلامي في صفحات معدودات، وذلك لإتساع أعراض التشخيص، وتنوع عوامل

العلاج، فلا أقل من أن نركز على عناصر الاشكالية المنهجية في تصوير مقومات خطابنا الديني وهي عناصر تكاد تلتقي كلها حول حالتين سائدتين في ذهنية الإنسان المسلم وهما:

الانفعال الحدثي والاديولوجي غير العميق في التعامل مع قضايا الحداثة الغربية، والتي أفرغت العقل المسلم من قيمه ومضامينه و لم تمكنه من التزود بزاد الحداثة الحقيقية.

الحساسية المفرطة من كل نسمة تهب على العقل الإسلامي، على اعتبار أن كل ما هو خارج الذات المسلمة، هواء ملوث، ينبغي حماية هذه الذات منه، حتى لا تصاب بالانفلونزة الاديولوجية الحدثية القاتلة.

بين الانفعال التفريطي، والحساسية الإفراطية ضاع الخطاب الإسلامي الديني وسط مهيع لم تتحدد معالم أهدافه، وتلك هي إشكالية هذا الخطاب..

كيف يمكن – في ضوء هذا الصراع داخل الذات المسلمة – تشخيص أعراض التأزم الذي تطرحه إشكالية الخطاب الإسلامي؟

هناك أعراض كثيرة تطبع هذا التأزم، وهي إن لم يقع التصدي لها، قد تقود إلى القضاء على وجود الخطاب الإسلامي من خارطة الفعالية الحضارية الإنسانية...ولعل أبرز ما يمكن رصده كمؤشرات للظاهرة المرضية الفكرية، ما يمكن وصفه بالإنسلابية والانحباسية، وبالصراع بين عالمية الإسلام وعولمية الحداثة، وحدود الصراع بين الجغرافيا والتاريخ في البناء الحضاري، وقبل هذا وبعده، البحث، عن الأدوات المعرفية المستخدمة في هذا الصراع، وهل هي نابعة من إنتاج ذاتنا الحضارية، أم هي مصطلحات مستوردة؟

إن هذه الأسئلة هي التي نتخذها، كممهدات لإبراز عناصر الإشكالية في الخطاب الإسلامي اليوم من أجل تقييمه وتقويمه، ولكننا نركز على الانسلابية الانحباسية لخطورتهما.

**أ- الإنسلابية ....والانحباسية:**

حالتان مرضيتان، تصيبان العقل الإنساني فتفرغانه من شحنته، وتبعدانه عن سحنته.

أما الحالة الأولى فهي تلك التي تخرجه عن الذات، فتجعله متعلقا بسراب يحسبه كل شيء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا...إنها ظاهرة الإنسلابية **ALIENATION** التي تجعل الإنسان ثقافيا أو عقديا يعيش خارج ذاته وخارج العالم المحيط به.... أي أنه بسبب وجوده داخل ثقافة ما، أو داخل تاريخ معين فقد السيطرة عليهما، يلجأ إلى ثقافة أخرى أو معتقد آخر، حيث يعيش مشدودا إلى صور مجردة، وانعكاسات هذه الانسلابية على الصعيد النفسي أو الفكري، تتجسد في حدوث توتر نفسي وسلوك غريب يؤدي إلى عدم تواؤم بين الفرد والحياة المجتمعية التي هو مدعو إلى العيش داخلها، فيتحول بذلك إلى أجنبي عن أمثاله.

تلك إذن هي إنسلابية الفكر عند بعض مفكرينا في الخطاب الإسلامي المعاصر، الذين ضاقوا بثقافتهم ومعتقداتهم، على سعتها، ذرعا فلجأوا إلى ثقافة الآخر ومعتقده ينشدون التقدم المزعوم ويبحثون عن الطمأنينة النفسية التي لم يعودوا يجدونها.

أما الانحباسية في الفكر **CLAUSTRAMANIE** فهي على العكس من الانسلابية، يمثل المصاب – بها هو الآخر- مرضا نفسيا، قد يتطور ليصبح مرضا ثقافيا

وعقديا وهو ما يسمى بمرض العزلة أو الانحباس CLAUSTRATION حيث يحبس المثقف نفسه داخل ثقافة معينة لا يبرحها، أو ضمن تاريخ لا يؤمن بسواه، مما يجعله يرفض الثقافات الأخرى، ويعلن الحرب عليها.

وخطابنا الإسلامي يعاني من تطرف الفئتين، ومن رفضهما لبعضهما...فإذا كان المنسلب يعاني الاغتراب داخل تراثه وثقافته فيكفر بقدرتها على تحقيق التقدم والتطور، فإن المنحبس الذي يعيش عزلة فكرية حبيس الماضي باسم ما يسمى بالسلفية تارة، أو الأصالية تارة أخرى نجده هو الآخر يبدّع كل منتوج غربي، ويكفّر كل من يؤمن بالحداثة ويحاول تطبيقها في واقعنا الإسلامي.

وهكذا ضاع الخطاب الإسلامي بين جامد وجاحد بين عقدة التقزم الذاتي وتحقير الذات الإسلامية وبين عقدة التفوق، والتعالي، وكلها عقد، يجب على خطابنا أن يعمل على التخلص منها، وتجاوزها للوصول إلى قاعدة الاعتدال بإيجاد حلقة وصل متينة تربط الماضي التليد، بالمستقبل السعيد، وهو ما ينتج عنه إبداع الحداثة الذاتية بمفهومها الإسلامي الذي يأخذ بعين الاعتبار الواقع التاريخي، والحاضر الثقافي، وهو ما يمثل قاعدة سليمة للإبداع العقلي بعيدا عن ضغوط الحداثة، المزيفة، وجاذبية الأصالة المزخرفة.

كم يفتقر خطابنا الإسلامي، إلى أصالة متكاملة البناء، بأدواتها المعرفية الذاتية، ومقوماتها التاريخية الأصلية التي تمكن من إبداع حداثة إسلامية ينتجها عقلنا، وتنمو وسط مناخنا، وتتغذى من الجيد في تراثنا، والإنساني في حداثة الآخرين.

ولن يصبح العقل الإسلامي قادرا على إنتاج هذا اللون من الإبـــداع الحـــداثي الخاص، إلا بعد تحريره من الاتباعية الماحقة المذلة، ومن الانحباسية العائقة المخلة....

إن الخلاص مما يعانيه خطابنا الإسلامي، من تمزق واغتراب، ومن تشدد وتجدد، إنما يبدأ من إزالة العصابة عن العيون، والكمامة عن الألسن والعقول، إذا ما أراد عقلنا أن يعيد إلى الذات المسلمة الحياة الإبداعية المفقودة، وان يمكن هذه الذات من تحقيق الوثبـــة الحضارية المنشودة.